

نظريّة التطّور لا زالت تشعل معارك العلم والإيمان في الولايات المتحدة الأمريكية

سبقت زيارة العالم الأمريكي فرانسيس كولينز لجامعة كالتك في ولاية كاليفورنيا دعاية مكثفة بين الطلبة. وفي ليلة المحاضرة العامة التي ألقاها في أكبر قاعات تلك الجامعة التي أخرجت واحداً وثلاثين فائزاً بجائزة نوبل من بينهم أحمد زويل، فوجئت بإقبال غير عادي من الطلبة بل ومن سكان المدينة خارج الجامعة. فعالم الوراثة المشهود بنجاحه في قيادة مشروع الجينوم البشري واكتشافه لعدد من جينات الأمراض المهمة سوف يتحدث عن كيفية توفيقه بين إيمانه بالله وإيمانه بصحة نظرية التطّور في نفس الوقت.

وفي أماكن كثيرة خارج الولايات المتحدة قد لا يعد هذا أمراً فريداً في حد ذاته، ففي الخمسينيات قرر بابا الفاتيكان أنه لا يوجد تعارضًا بين المسيحية الكاثوليكية وبين نظرية التطّور، وبهذا صرّح أيضاً أسقف كانتربيري بالنسبة للكنيسة الأنجليكية. ولكن في أمريكا حيث لا توجد سلطة كنسية موحدة، لا زال الصراع حول نظرية داروين يقسم المجتمع الأمريكي إلى معسكرين: معسكر يعادى نظرية التطّور وتقوده بعض الطوائف البروتستانتية المتمسكة بالتفصير الحرفي لقصة الخلق كما وردت في سفر التكوين من الكتاب المقدس، وأخر من أنصار نظرية التطّور يضم العلماء وإلى جانبهم بعض الأصوات الداعية للإلحاد ومعاداة الكنيسة. وهو الأمر الذي أصاب الشعب الأمريكي بالأرق الديني والبلبلة الفكرية.

فالفرد العادي يذهب إلى كنيسته ليستمع إلى خطاب يتنازع مع ما يتعلمه أولاده في المدرسة، وتصور له المعركة الدائرة في ساحات الإعلام أن عليه الاختيار بين أحد المعسكرين. وفي استطلاع أجرته مجلة "ساينس" العلمية بين شعوب 34 دولة، تبين أنه باستثناء الأتراك فإن الأمريكيين هم الأقل قبولاً لنظرية التطّور بالمقارنة بشعوب أوروبا واليابان. وحسب هذه الدراسة وغيرها من الاستطلاعات المحلية داخل الولايات المتحدة فإن غالبية الأمريكيين بنسب تتراوح من 62% إلى 74% ترفض نظرية داروين في تفسير نشأة وتطور الإنسان عبر الانتخاب الطبيعي.

إن الخلاف بين أنصار التطّور وأنصار قصة الخلق لا يتوقف عند مستوى الجدل الفكري أو الفلسفى، بل اكتسبت القضية عبر السنين أبعاداً سياسية ودستورية جعلت كل من الفريقين يتحزب ضد الآخر في معركة أيديولوجية تزداد إلتهاكاً.

وتعود جذور تلك المعركة إلى عشرينيات القرن العشرين منذ أن بدأ بعض وعاظ ورعاة الكنائس المحافظة في جنوب الولايات المتحدة حملة لوقف تدريس نظرية التطور في المدارس العامة. وصدر بالفعل قانون من المجلس التشريعي لولاية تينيسي عام 1925 يجرم تدريس "أي نظرية من شأنها إنكار الخلق الإلهي للإنسان كما ذكر في الكتاب المقدس أو أن الإنسان قد تطور من سلالة حيوان أدنى". وهنا تصدى الإتحاد الأمريكي للحرفيات المدنية للدفاع عن أي مدرس علوم يرغب في تدريس نظرية التطور في تينيسي، فوقيع محكمة سكوبس (اسم المدرس الذي خرق قانون الولاية) والتي اشتهرت باسم محكمة القرد ودخلت التاريخ باعتبارها أولى المحاكمات الأمريكية التي تحول إلى قضية رأي عام تحت تكتيف إعلامي من قبل الراديو.

وتكرر صدور قوانين محلية منعت تدريس نظريات داروين في المدارس العامة في عدة ولايات جنوبية أخرى، مما أثار الجبهات المضادة التي رأت في ذلك خرقاً لدستور الولايات المتحدة الذي يفصل بين الدين والدولة، وعدواناً على حرية التعبير، بينما رأه البعض نزاعاً بين قوى التقدم وقوى التخلف.

وعندما نجح الإتحاد السوفييتي في إطلاق أول مركبة فضائية عام 1957 متقدماً على الولايات المتحدة، جعلت الإدارة الأمريكية من تدريس العلوم أولوية قومية. ومع هذا استمر حظر تدريس داروين سارياً في بعض الولايات حتى عام 1968 عندما حكم على تلك القوانين بعدم الدستورية.

"بوش يؤيد تدريس "التصميم الذكي"

ثم اتخذت معركة أنصار الخلق وأنصار التطور أشكالاً أخرى بظهور حركة "علوم الخلق" في السبعينيات، والتي قامت محاولة لإثبات ما جاء في الكتاب المقدس علمياً، خاصة في ظل الشهرة الواسعة التي نالتها دراسة تؤيد حدوث طوفان نوح. وقامت بعض الولايات بتقرير دراسة علوم الخلق بجانب نظرية التطور التي أصبحت إلزامية. ولكن سرعان ما توارت تلك الحركة وتم حظر تدريسها بسبب إصرارها على أمور حرفية أثبت العلماء خطأها علمياً مثل مسألة عمر الأرض التي يقول أنصار الخلق أنه لا يتعدى بضع آلاف من السنين في حين ثبت أن عمر الأرض يتجاوز ملايين السنين.

وفي السنوات الأخيرة، تمسك المعادون لنظرية داروين بفكرة "التصميم الذكي" للكون، والتي تنطلق من أن الحياة أكثر تعقيداً من أن تكون قد تطورت بأكملها من خلال الانتخاب الطبيعي وأنه لا بد من قوة إلهية عظمى خارجية لعبت دوراً في نشأة وتطور الحياة. وقد قام الرئيس الأمريكي السابق جورج بوش عام 2005 بالدعوة لتدريس تلك النظرية في مدارس تكساس، مما أثار جدلاً إعلامياً حول تناامي تأثير اليمين الديني على السياسة في الولايات المتحدة. وفي نفس العام قررت محكمة فدرالية وقف تدريس نظرية التصميم الذكي في مدارس ولاية بنسلفانيا باعتبار أنها تفتقد الأساس العلمي.

وبدا تسبيس القضية واضحاً من جانب الحزب الجمهوري في الحملة الانتخابية الأخيرة عندما صرحت سارة بالين -التي كانت مرشحة لمنصب نائب الرئيس الأمريكي- أنها مؤيدة لتدريس قصة الخلق كما وردت في

الكتاب المقدس أو نظرية التصميم الذكي إلى جانب نظرية التطور في المدارس العامة. وهو الرأي الذي يتطابق مع أراء 64% من الأميركيين حسب استطلاع أجراه مركز بيو مؤخراً.

موقف باراك أوباما

وعندما سُئل باراك أوباما عن رأيه في القضية قال أنه مسيحي، وأنه يؤمن بحق الألهالي في تعليم أولادهم الدين دون تدخل من الدولة. ثم قال أن واجب المدارس هو تدريس المعرفة الدينية والعلوم. وأنه يؤمن بنظرية التطور ويعتقد أن هناك فرقاً بين العلم والإيمان وأن هذا لا يعني أن الإيمان أقل أهمية من العلم ولكنها منفصلان، ولذلك لا يجب تشويش عملية تدريس علوم الأحياء بمناقشة نظريات غير علمية.

ويأتي رأي أوباما هذا متوافقاً مع دستور الولايات المتحدة الذي لا يمنع تدريس الكتاب المقدس أو قصة الخلق في إطار مواد التاريخ والحضارة والأديان المقارنة، وإنما يمنع تدرисها في إطار مادة العلوم. فالقضايا الأخيرة التي أقيمت أمام المحاكم بشأن هذا الموضوع تتعلق بمحاولات مختلفة من جانب المعادون لنظرية التطور للزج بجمل توضيحية في مستهل دروس التطور في كتب العلوم ومحضن الأحياء تفيد بأن التطور ليس سوى نظرية، أو أن على الدارس تحليل الانتقادات التي توجه للتطور، أو ممارسة التفكير النقدي حيالها.

تلك الجمل التحفظية تثير غضب العلماء في الولايات المتحدة لأن هناك ما يشبه الإجماع العلمي بنسبة 99% على صحة نظرية التطور والانتخاب الطبيعي، حيث أصبحت تعد نظرية مثبتة مثلها مثل نظرية الجاذبية الأرضية. بل ويبدي كثير من العلماء قلقهم إزاء مستقبل الريادة العلمية للولايات المتحدة وقدرتها التنافسية في مجال العلوم في ظل هذا التخبط. فنظرية التطور هي حجر الزاوية في علم الأحياء أو البيولوجيا الحديثة، ويعتمد 38% من امتحان الأحياء المؤهل لدخول أنواع العلوم والطب في الجامعة على استيعاب مفاهيم التطور والوراثة.

التطور الإلهي: رؤية تصالحية

هذا التجاذب بين الموقفين هو سبب حرص طلاب الجامعة وغيرهم من الأميركيين الحائرين على الاستماع لمحاضرة الدكتور فرانسيس كولينز، خاصة في هذا التوقيت الذي تمر فيه المئوية الثانية لميلاد تشارلز داروين.

ويرجع الاهتمام برأي كولينز في هذا الجدل لكونه صاحب مكانة علمية رفيعة بين العلماء، بل وامتياز خاص في مجال الجينات الوراثية. ولكنه بالإضافة إلى ذلك صاحب رحلة روحانية مؤثرة، حيث تحول من الإلحاد إلى الإيمان المسيحي في سن السابعة والعشرين. وقد وصف في كتابه "لغة الله" كيف يقدم العلم الدلائل على وجود الخالق. لذلك يمثل هذا العالم المجاهر بإيمانه جسراً نادراً بين المعسكرين التقليديين في المجتمع الأميركي.

فهو يشتراك مع بقية العلماء في الاعتقاد بصحة نظرية التطور، ومعارضة كل من فكرة التصميم الذكي والقراءة الحرفية لقصة الخلق في الكتاب المقدس. ولكنه يختلف عن العلماء الملحدين من أمثال ريتشارد دوكنز في إيمانه بأن الله هو الذي خلق الكون والحياة منذ 14 مليار سنة تقريباً، وأن الله هو الذي أرسى عملية التطور والانتخاب الطبيعي باعتبارها آلية تسمح بحدوث التنوع الحيوي عبر فترات زمنية طويلة دون تدخل لاحق منه.

وبحسب رؤية التطور الإلهي لكولينز فإن البشر جزء من عملية التطور هذه، حيث يجمعهم بالقردة العليا أصل مشترك، ولكن للإنسان خصائص فريدة لا تفسرها عملية التطور تشير إلى طبيعته الروحانية، مثل القانون الأخلاقي والبحث عن الله الذي تميزت به الثقافات الإنسانية كلها عبر التاريخ.

إن في مثل هذه القضايا التي تتدخل فيها العقائد مع النظريات العلمية المعقّدة، من الصعب أن نتصور أن محاضرة أو كتاب أو مقال سوف تغير من قناعات استقرت عند أصحابها منذ الطفولة. وكل من قابلتهم بعد المحاضرة قد اختاروا منها ما يؤكد آراءهم وموافقهم الأولى، وأغلبهم لا يريد أصلاً أن يرهق عقله باتخاذ موقف، فأذهانهم مرهقة بما يكتفي.

هديل غنيم